قالت: أنت لا تريح.

قال: ولكني أراكِ مرتاحة ... أأنتِ تموتين؟ ومَن الذي يأذن لكِ أن تموتي؟

وكانت مرتاحة حقًّا لما سمعت. ولو أنه أسمعها غير ذلك حسرات التفجع والتعوذ ومواعيد الحزن القاتل وعهود الوفاء الدائم لفترت وملَّت وانقلبت عليه، ولكنه إذا ضمها وربت عليها وضن بعد ذلك بالكلام فقد وفَّاها من التدليل غاية مناها، وضمن ألَّا تفسد عليه صفاء الساعة التي هي فيها.

وكان همام يمتحن معارفها الغرامية كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر مرة على أبعد تقدير، ويرشحها على أثر كل امتحان لوظيفةٍ من الوظائف التي «تؤهلها» لها تلك المعارف الكثيرة ... إلا أنه استقر آخر الأمر على أنها أصلح ما تكون مديرة للإضاءة في مسرح تمثيل.

لأنها تعلم مواقع الرؤية علمًا لا خطأ فيه، وربما وقفت في المكان المكشوف والنوافذ مطلة عليه من جوانبٍ شتى، ثم لا تبالي أن تمازح صاحبها وتغريه بمزاحها وتجميشها، فإذا أحجم وتردد ضحكت منه ساخرة، وأولعت بتعييره والتهكم عليه؛ لأنه لَمْ يفهم لأول وهلة كما فهمت هي أن الأشعة المردودة عن زجاج النوافذ هناك تحجب النظر من ورائها!

تعلمت وهامت بأوروبا، فأوروبا عندها نبيٌّ معصوم؛ كل شيء فيها خير من كل شيء في غيرها، وهذه التي تغفل عن الأديان حتى يخيل إليك أنها لَمْ تسمع قط بمكة وبيت المقدس وطور سيناء، هذه الوثنية في عالم الدين تراها في عالم الأزياء، فتعلم لأول وهلة أنها لا تغفل لحظةً واحدةً عن وحي باريس ومناسك الأزياء في العالم الأوروبي بأسره؛ لأنها تتحرج من وضع شريطٍ في غير موضعه أو لبس زيٍّ في غير موعده تحرج الزاهد الصالح من ذنبٍ ينفيه عن رحمة الله ويخلده في جحيم عذابه.

وكان صاحبها همام على نقيضها؛ يهزأ بالعُرف وقد يتعمد الخروج عليه ولو في المجامع العامة، لحق بها ليلة بدار الأوبرا وهو في ملابسه الصباحية فكادت حين رأته إلى جانبها تجنُّ من الغيظ وتتجاهل معرفتها به ومصاحبتها إياه، وجعلت تنظر إليه نظرات فيها من الاستغراب والاستهوال والإكبار لهذه الجرأة أو لهذا التهور بمقدار ما فيها من الأسف والحنق والاستنكار، ومالت إليه تقول: ماذا يظن هؤلاء الناس؟ إنهم لن يقولوا إلا أن هذه الفتاة مسكينة مع هذا الرجل! قال متظاهرًا بالاعتذار وقد علم أن المعابثة أنفع أساليب الاعتذار معها في هذه الحالة: لا عليكِ أيتها الفتاة المسكينة، في المرة